﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾ [آل عمران: 24]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أسباب الجرأة على الله وارتكاب المعاصي

لَمَّا ذكر تعالى اجتراء اليهودِ على الله، وعدّد سبحانه بعض مخازيهم، علّل تلك الجرأة عليه، وذلك الإعراض عن كتابه؛ بأنّهم قالوا كذبًا وبهتانًا: لن تمسَّنا النَّار إلَّا أيّامًا قليلات معدودات، وتطاوَلَ الزّمانُ وهم على هذا الباطل، حتّى اطمأنُّوا إليه، وأقنعوا أنفسهم بهذا القولِ الذي رسَّخ اعتقادَهم له وهوَّنوا به الخطوبَ ولم يبالوا معه بارتكابِ المعاصي والذُّنوب، ولمَّا نسبوا ذلك إلى الكتاب، وجعلوه ديناً، بيَّن سبحانه أن تعمُّد كذبهم على الله، وتحريفهم دينهم؛ إنَّما كان بسبب غُرورهم، ولا صلة له بدين الله، ولا ارتباط له به[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَسَّنَا﴾: المَسُّ: مخالطة دقيقة ذات أثَرٍ، وأكثر ما تكون بجَسّ الشَّيء باليد، والمسُّ كاللّمس، لكنَّ اللّمس يُقال لطلب الشّيء، وإن لم يوجد، والمَسُّ يُقال فيما يكون معه إدراكٌ، والمسُّ يقال فيما ينال الإنسان من أذىً أو مكروه، كقوله تعالى: ﴿مَسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ﴾ [البقرة: 214]، وقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: 83]، وقوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ [ص: 41][2].

2) ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾: العَدُّ: إحصاءٌ ببيان الأفراد وضبطهم، ولو كثرت، والإعدَادُ: إحضار الشّيء وتَهيئَته، والفرق بين العدّ والإحصاء

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 2/51 - 52، والآلوسي، روح المعاني: 2/107.

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة (مسَّ)، والرّاغب، المفردات، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (مسس)، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (مس، مسمس).

أنّ العدَّ سَردُ بعض الأشياء تِلوَ بعضها الموجود منها، ولا يستلزم بلوغ آخر جنسها، والإحصاء: حَصرُ الشّيء عَدًّا ببلوغ آخر ما هو منه، قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾﴾ [مريم: 84]، يعني: أنّ الأنفاس تُحصى إحصاءً، ولها عددٌ مَعلوم، وقوله تعالى: ﴿جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾﴾ [الهُمزة: 2]، أي: جعله ذا كثرة وعَدَد، أو: جعله عُدَّة للدّهر[1].

والمعنى هنا: أيامًا قليلة العدد.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

عقيدة اليهود الفاسدة القائمة على الكذب والخداع

ذلك التَّولِّي والإعراضُ عنِ الحقِّ سببه اعتقادٌ فاسدٌ لدى هؤلاءِ اليهود؛ لأنَّهم كانوا يدَّعون بأنّهم لن يعذَّبوا إلّا أيامًا قليلة – وهي مدَّةُ عبادتِهم العجلَ – ثم يَدْخلون الجنةَ، وهذا الاعتقاد أدَّى إلى جرأتهم على اللّه، واستهانتهم بدينه، واستمرُّوا على دينهم الباطل الّذي خَدَعوا به أنفسهم، وهذه العقيدةُ عقيدةُ اليهودِ، وما هو إلَّا مجرَّد كذبٍ وافتراء من تلقاء أنفسهم افتَعَلُوه، ولم ينزل اللّه به سلطانًا[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

التّعبير عنِ الاعتقاد بالقول:

وعبّر عنِ الاعتقاد بالقول ﴿قَالُواْ﴾؛ دلالة على أنّ هذا الاعتقاد المُعلَن لا دليل عليه؛ وأنّه مجرد قول مفترى، وهذه عقيدة اليهود[3].

سرُّ العدول عن ﴿مَّعۡدُودَةً﴾ [البقرة: 80] إلى ﴿مَّعۡدُودَٰتٍ﴾:

اختلاف القائلين، ومناسبة السياق

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: 80]، وقال هنا: ﴿مَّعۡدُودَٰتٍ﴾، الأيّام جمع قلّة، وَوُصِفَت بجمع السّلامة الّذي يفيد القلّة؛ لتأكيد القلّة، وللاحتراس من إرادة الكثرة بجمع القلّة على سبيل الاستعارة، قال الزّجّاج: ﴿مَّعۡدُودَٰتٍ﴾

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد)، وابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عدد).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/28، ونخبة من العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 53.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.

يستعمل كثيراً في اللّغة للشّيءِ القليل، وكلّ عدد قَلَّ أو كَثُرَ فهو معدود، ولكنّ ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾ أدلّ على القلّة؛ لأنّ كلّ قليل يجمع بالألف والتّاء، نحو: دريهمات وجماعات[1].

وقال السيوطي: قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠﴾ [البقرة: 80]. وفي آل عمران: ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۚ﴾. قال ابن جماعة: لأنَّ قائل ذلك فرقتان من اليهود إحداهما، قالت: إنّما نعذب بالنَّار سبعة أيام عدد أيام الدنيا، والأخرى قالت: إنَّما نعذَّب أربعين عدَّة أيام عبادة آبائهم العجل؛ فآية البقرة تحتمل قصد الفرقة الثانية حيث عبّر بجمع الكثرة، وآل عمران بالفرقة الأولى؛ حيث أتى بجمع القلّة.

والظّاهر - كما ذكر السيوطي وغيره - أنّ القوم المذكورين هنا غير الّذين في سورة البقرة، ويرجّح ذلك وصفهم هنا بقوله: ﴿أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ على خلاف ما هناك، فإنّهم هناك ذكروا في سياق الحديث عن بني إسرائيل، ثمّ بيّن عقابهم فمايزهم بين مؤمن وكافر، فقال: ﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: 81 - 82]، وقد تكرّر ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ في سورة النّساء [النّساء: 44، 51]، كما قالوا: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النّساء: 51]، فقال: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، ولعلّ هذا أشنع ما وُصف به الكفّار في كتاب الله، فكان هؤلاء الّذين أوتوا نصيبًا منَ الكتاب إذا دعوا إلى كتاب الله ليحكم بينهم قالوا: لن تمسّنا النّار إلّا أيّامًا معدودات، وهو أقلّ القليل في اعتقادهم، بخلاف من قالوا: معدودة، وفي سورة البقرة ناقشهم في حجّتهم فقال: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾ [البقرة: 80]، وهنا: لم يناقشهم، بل سفّه ما قالوا بقوله: ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾، فبيّن أنّ لهم دينًا خاصًّا، وتوعّدهم بالجمع يوم القيامة.

وعلى فرض أنَّ هؤلاء المذكورين هنا هم المذكورون هناك فإنّ السِّياق المذكور فيه ﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗ﴾ [البقرة: 80] قد ذكر فيه كثير من الجرائم والآثام، وكان على سبيل الإخبار عن كثرة

(1) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 1/275، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/83، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50.

مخالفتهم، والسِّياق المذكور فيه ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ ذكر فيه جرائم لهم، ولكنَّها أقلّ، وكان على سبيل التعليل لانصرافهم عن الحقِّ وإعراضهم عنه؛ فكان ادعاؤهم في كلٍّ منسجمًا مع السياق؛ حيث إنَّ الإخبار يقتضي الكثرة، والتعليل لهذا الإعراض يقتضي القلَّة في زعمهم؛ فغرّهم ظنُّهم هذا ما اختلقوه من الكذب والبهتان.

الظرفيّة المجازيّة في قوله: ﴿فِي دِينِهِم﴾:

أي: وغرّهم ما افتَرَوه، وتَقَوَّلوه على الدّين، وأدخلوه فيه، من أنّ النّار لن تمسّهم إلّا أيّامًا قلائل، أو أنّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، فلذلك أُتِيَ بـ ﴿فِي﴾ الدّالّة على الظرفيّة المجازيّة[1].

سرُّ تقديم الجارّ والمجرور في ﴿فِي دِينِهِم﴾:

الدّين عند اللّه واحد؛ وهو الإسلام، وكلّ الأنبياء كانوا على الإسلام.

للاهتمام والاختصاص

وفي نسبة الدّين إليهم ﴿فِي دِينِهِم﴾ إشارة إلى ما أدخلوه منَ التّقوّلات في الدّين، ثمّ إنّه ذكر الدّين، ولم يذكرِ الكتاب؛ لأنّ ما افتروه أصبح عندهم عقيدةً وديناً على خلاف الكتاب الّذي نبذوه وراء ظهورهم، وقدّم الجارّ والمجرور ﴿فِي دِينِهِم﴾؛ للاهتمام والاختصاص؛ إذ ما كان ليقع غرورهم وقوعًا جماعيًّا، كما وقع، لولا ما افتروه في دينهم.

ليس كلّ ما تتبنّاه الجماعة أو المجتمع صحيحًا؛ وذلك بسبب الكِبر والغُرور، والغُرور يؤدّي بصاحبه إلى ارتكاب الكبائر وأشنع الآثام

وقوله: ﴿مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ الّذي افتروه هو قولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَٰتٍ﴾، أو: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]. أو: ﴿لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: 111]؛ أو: كلّ هذه الأقوال[2]، والواضح أنّ افتراءهم كان على صعيد مجتمع كاملٍ، نتج عنه الدّين المُحرّف الّذي نُسب إليهم، فقال: ﴿فِي دِينِهِم﴾،

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 2/11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/83.

وقد أخبر الله تعالى أنّ الافتراء، وهو تعَمُّد الكذب، تسبّب عنه الغرور الّذي أوقعهم في الضّلال الدّائم؛ لأنّ المخالفة إذا لم تكن عن غرور فالإقلاع عنها مرجوٌّ، أمّا المغرور فلا يترقّب منه إقلاع، والغرور إخفاء الخدعة في صورة النّصيحة[1].

تعدّد التلوُّن في الخطاب بالتّنوّع الفعليّ:

في الآية تلوُّن في الأفعال، منَ الماضي إلى المضارع، ثمّ إلى الماضي، ثمّ إلى المضارع؛ وذلك يعكس تقلّبات الأفعال، والأنفس، والمجتمع الّذي اغترّ بكذبه في الدّين.

لمّا انتقل منَ الماضي ﴿قَالُواْ﴾ إلى الحاضر ﴿تَمَسَّنَا﴾ اتّضح أنّ قناعتهم بما قالوه كانت قديمة مرتكزة على عقيدة قديمة؛ فهم شعب الله المختار - بزعمهم - من بين شعوب الأرض كلّها على مدى الدّهر، واختار فعل المسّ دون فعل الإصابة أو الإحراق؛ ليدلّ على هوان ذلك العذاب، وأنّه مقتصر على حاسّة الجلد؛ أي: ما سيصيبهم منَ العذاب هو على قدر ما تصيب النّار جلودهم كما تصيب نار الدّنيا جلودهم، ثم يُدخلون الجنّة.

ثمّ انتقل منَ المضارع ﴿تَمَسَّنَا﴾ إلى الماضي ﴿وَغَرَّهُمْ﴾؛ فكان ذلك الاعتقاد في عدم مساس النّار لهم إلّا أيّامًا قلائل كفيلًا بغرورهم بالله، وكفيلًا باقتناعهم، وتديّنهم بهذا الدّين الّذي هو جملة من وحي الشّياطين، وتزيينهم؛ إذ جعلوا أنفسهم في مقام عالٍ عند الله، وهم في الوقت ذاته يُعرضون عن حكمه سبحانه وعن كتابه.

وأخيرًا انتقل منَ الماضي ﴿وَغَرَّهُمْ﴾ إلى المضارع ﴿يَفْتَرُونَ﴾، فدلّ ذلك على أنّ الغرور قد أخذهم، فلا أمل لهم للخلاص منه، وما ذاك إلّا أنّه قد غُرس ذلك التّديّن في نفوسهم فصار عقيدة ودينًا بديلًا عنِ الحقِّ الّذي في الكتاب، وتأصّل ذلك الغرور؛ بسبب إصرارهم على افتراءاتهم وتجدُّدها؛ فالمضارع يدلّ على التّجدُّد مع الزّمن، والتّجدّدُ يقتضي التّنوّع أيضًا، واختلاق الحجج، والأفكار الجديدة الدّاعمة لذلك الغرور.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/83، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 2/50، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 3/211.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الرابع، سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 4 ، 808 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-55-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 4 : سورة البقرة من الآية 248 إلى سورة آل عمران الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-55-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5828584 بتاريخ 2023/03/10م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»